مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 12 عدد: 01 السنة 2026 E-ISSN:2588-2325

الانتماء القبلي وتأثيره على تنظيم الفضاء العام
دراسة ميدانية في سوق زقاق بن رمضان – بسكرة

Tribal affiliation and its impact on the organization of public space: A field study in Souk Zaqqaq Ben Ramadan – Biskra

أسماء صولة*، مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر، جامعة محمد خيضر بسكرة،
asma.saoula@univ-biskra.dz
درنوني سليم، جامعة محمد خيضر بسكرة، s.dernouni@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2026/02/24 تاريخ القبول: 2026/06/19 تاريخ النشر: 2026/06/30

ملخص:

تتناول هذه الدراسة دور الانتماء القبلي كفاعل أساسي في إعادة تشكيل الفضاء العام الحضري، مع التركيز على "سوق زقاق بن رمضان" بمدينة بسكرة كنموذج ميداني. تنطلق الدراسة من إشكالية مفادها أن التحضر في السياق الجزائري لم يؤدِّ إلى زوال البنى التقليدية، بل أعاد إنتاجها في قوالب وظيفية مرنة تتكيف مع منطق المدينة الحديثة. اعتمد البحث على المنهج الإثنوغرافي مستخدماً أدوات الملاحظة بالمشاركة والمقابلات شبه الموجهة مع التجار والزبائن. وتوصلت الدراسة إلى أن الانتماء القبلي والقرابي يحدد بشكل كبير أنماط التموقع المكاني داخل السوق، وبشكل شبكات تضامن اقتصادية غير رسمية تضمن الثقة وتدير النزاعات بعيداً عن الأطر الإدارية الرسمية. كما كشفت النتائج عن ممارسة "سيطرة رمزية" على المساحات العامة تخضع لمنطق الأقدمية والسمعة الاجتماعية. تخلص الدراسة إلى أن السوق الشعبي يمثل "مختبراً اجتماعياً" تتجلى فيه حركية الهوية، حيث تتقاطع العصبية التقليدية مع المصالح لتنتج تنظيماً اجتماعياً هجيناً.

الكلمات المفتاحية:

الفضاء العام، الانتماء، القبيلة، الأسواق، التضامن.

*المؤلف المرسل

Abstract:

This study examines the role of tribal affiliation as a key factor in the restructuring of urban public space, focusing on the "Souk Zqaq Ben Ramadan" market in the city of Biskra as a case study. The study starts from the premise that urbanization in the Algerian context has not led to the disappearance of traditional structures, but rather to their reproduction in flexible functional forms adapted to the logic of the modern city. The research relied on an ethnographic approach, using participant observation and semi-structured interviews with merchants and customers. The study found that tribal and kinship affiliations largely determine patterns of spatial positioning within the market and form informal economic solidarity networks that ensure trust and manage conflicts outside of formal administrative frameworks. The results also revealed the practice of "symbolic control" over public spaces, which is subject to the logic of seniority and social reputation. The study concludes that the popular market represents a "social laboratory" in which identity dynamics are manifested, where traditional tribalism intersects with interests to produce a hybrid social organization.

Keywords:

Public space, tribal affiliation, popular markets, social solidarity, symbolic control.

مقدمة:

يُعدّ مفهوم الفضاء العام من المفاهيم المركزية في العلوم الاجتماعية، إذ يشير إلى المجال الذي تتقاطع فيه التفاعلات الاجتماعية، الاقتصادية، والسياسية داخل المجتمع. فقد عرّفه يورغن هابرماس بوصفه مجالًا للتواصل العقلاني والحوار العمومي، حيث يتبادل الأفراد الآراء حول القضايا المشتركة بعيدًا عن هيمنة السلطة الرسمية. وقد عبر هابرماس عن ذلك بقوله: «نعني بالفضاء العام، قبل كل شيء، مجالًا من مجالات حياتنا الاجتماعية يمكن أن يتكوّن فيه شيء يقترب من الرأي العام. ويُضمن الوصول إليه لجميع المواطنين. ويتشكّل جزء من الفضاء العام في كل محادثة يجتمع فيها أفراد عاديون لتكوين هيئة عامة».(Habermas, 1989, p. 27).

في حين ركّز هنري لوفيفر على البعد الاجتماعي لإنتاج الفضاء، معتبرًا أن الفضاء ليس مجرد إطار مادي محايد، بل هو نتاج علاقات اجتماعية تعكس موازين القوى والرموز الثقافية السائدة. ويظهر ذلك في قول هنري لفيبر حيث يقول: «الفضاء ليس شيئًا، بل هو بالأحرى مجموعة من العلاقات بين الأشياء (الأجسام والمنتجات)»(Lefebvre, 1991, p. 83) . كما قدّم بيير بورديو تصورًا ديناميًا للفضاء الاجتماعي، «الفضاء الاجتماعي هو فضاء متعدد الأبعاد من المواقع، حيث يمكن تعريف كل

موقع وفق نظام متعدد الأبعاد من الإحداثيات، تتوافق قيمه مع قيم المتغيرات المختلفة ذات الصلة»(Bourdieu, 1984, p. 114). ومن هذا المنطلق، يُنظر إلى الفضاء العام كساحة لإعادة إنتاج البنى الاجتماعية، ومجال تتجلى فيه الهويات والانتماءات، بما فيها الانتماء القبلي، من خلال أنماط التفاعل والتموقع داخل المجال الحضري. إبراز حضور الانتماء القبلي في المدن الجزائرية المعاصرة رغم التحضر

تُظهر الدراسات الأنثروبولوجية أن التحضر لا يؤدي إلى اختفاء البنية القبلية بقدر ما يعيد تشكيلها داخل الفضاء الحضري في صورة شبكات تضامن مرنة تُوظَّف لأغراض اقتصادية وسياسية ورمزية. فقد أشار Ernest Gellner إلى أن «القبائل ليست بقايا من الماضي؛ بل هي تنظيمات اجتماعية قادرة على التكيف مع الظروف السياسية والاقتصادية المتغيرة» (Gellner, 1981, p. 72)، مما يؤكد استمرار الفاعلية القبلية في سياقات التحديث. كما يوضح Jean-Loup Amselle أن «الهويات الاجتماعية في إفريقيا ليست كيانات ثابتة، بل يعاد تشكيلها باستمرار عبر العمليات التاريخية والتفاعلات» (Amselle, 1998, p. 25)، وهو ما يبرز الطابع الديناميكي للبنى القرابية داخل المجال الحضري. ويتقاطع ذلك مع تحليل Pierre Bourdieu الذي يرى أن «البُنى المُكوّنة لنوع معيّن من البيئة... تُنتج ممارسات تميل إلى إعادة إنتاج الانتظامات الكامنة في الشروط الموضوعية» (Bourdieu, 1977, p. 78)، وهو ما يفسر قدرة البنى التقليدية على إعادة إنتاج نفسها داخل فضاءات اجتماعية جديدة. وبذلك يمكن فهم الفضاء الحضري بوصفه مجالًا تفاوضيًا تتقاطع فيه منطق الدولة الحديثة مع منطق التضامنات القبلية.

تُظهر المقاربات الأنثروبولوجية أن القبيلة في السياقات الحضرية لا تمثّل مجرد إطار هوياتي، بل تتحول إلى شبكة تضامن اقتصادي فعّالة، خاصة داخل الأسواق الشعبية حيث تُبنى المعاملات على الثقة الناتجة عن القرابة والانتماء. فقد أوضح Clifford Geertz أن الفاعلين الاقتصاديين في الأسواق التقليدية يعتمدون على العلاقات الشخصية والمعرفة المتبادلة،حيث «تُدار الحياة الاقتصادية من خلال شبكات من العلاقات الاجتماعية أكثر من اعتمادها على قواعد مجردة» (Geertz, 1978, p. 29). ويتقاطع ذلك مع تصور Karl Polanyi الذي يرى أن «اقتصاد الإنسان، كقاعدة عامة، مدمج في علاقاته الاجتماعية» (Polanyi, 1957, p. 46)، أي أن النشاط الاقتصادي لا ينفصل عن البنى القرابية والتضامنية. .وفي شمال إفريقيا . في هذا الصدد تشير أطروحات Ernest Gellnerعلى مرونة هذه البنيات وقدرتها العالية على التكيف والملائمة مع الظروف المتغيرة (Gellner, 1981)، حيث لم تعد الروابط القبلية مجرد إرث تاريخي قديم بل تحولت إلى آلية حية يتكيف من خلالها الأفراد مع متطلبات الحياة الحضرية المعاصرة، مما يفسر استمرار دورها في تسهيل الوصول إلى الفضاءات التجارية وتقليل المخاطر الاقتصادية. وبذلك يصبح السوق الشعبي مجالًا تتجسد فيه

القبيلة كفاعل اقتصادي جماعي يعيد إنتاج منطق التعاون داخل فضاء حضري يفترض نظريًا هيمنة العلاقات الفردية.

يُعد السوق الشعبي فضاءً اجتماعيًا مركزيًا تتداخل فيه الأبعاد الاقتصادية بالاجتماعية والثقافية، إذ لا يقتصر دوره على تبادل السلع بل يشمل إنتاج العلاقات والهويات المحلية.وهو ما يعكس الطابع الاجتماعي للاقتصاد. وفي هذا الإطار لا تعد الهويات الاجتماعية كيانات جوهرية ثابتة ، بل تتشكل عبر صيرورة التمازج المستمر بفعل العمليات التاريخية والتفاعلية، مما يبرز دور السوق كمجال لإعادة إنتاج التضامن والانتماء. ومن ثمّ يمثل السوق الشعبي مختبرًا اجتماعيًا لفهم السلطة والانتماء والتكيّف مع التحولات الحضرية المعاصرة .

تم اختيار سوق زقاق بن رمضان بمدينة بسكرة باعتباره فضاءً يتميز بكثافة اجتماعية وتنوع بشري يعكسان البنية المحلية، حيث يشكّل نقطة التقاء للانتماءات القبلية والحضرية، ما يجعله مناسبًا لدراسة التفاعل بين التنظيم الحضري والبنى التقليدية. وتظهر داخله آليات التعاون والثقة وحل النزاعات خارج الأطر الرسمية. كما يسمح طابعه التاريخي بدراسة استمرارية الممارسات التقليدية داخل المدينة. وعليه، يوفر السوق سياقًا ميدانيًا غنيًا لفهم إعادة توظيف الانتماءات القبلية داخل الاقتصاد الحضري.

1. إشكالية الدراسة وتساؤلات البحث:

ينطلق البحث من فرضية أن الفضاء العام الحضري، خاصة الأسواق الشعبية، لا يتشكل فقط وفق منطق إداري أو اقتصادي حديث، بل يتأثر أيضًا بالبنى الاجتماعية العميقة مثل الانتماءات القبلية والقرابية التي ما تزال فاعلة في المجتمع الجزائري المعاصر. فخلافًا للتصورات التحديثية التي توقعت تراجع القبيلة مع التمدّن، تؤكد الدراسات الأنثروبولوجية استمرارها بوصفها إطارًا مرنًا للتنظيم الاجتماعي،قادرة على التأقلم والتموقع ضمن الظروف المستجدة ،وهذا ما يوضحه Ernest Gellnerفي أطروحاته حول مرونة التنظيمات القبلية (Gellner, 1981). كما يمكن تفسير هذا الاستمرار سوسيولوجيا بقدرة البنى التقليدية على إعادة إنتاج ممارساتها وتثبيت إنتظاماتها الكامنة في الشروط الموضوعية لإنتاجها. وفي هذا السياق، يُنظر إلى السوق الشعبي بوصفه فضاءً اجتماعيًا حيًا تتداخل فيه الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية، بينما يؤكد Henri Lefebvre أن «الفضاء (الاجتماعي) هو نتاج (اجتماعي)» (Lefebvre, 1991, p. 26)، أي أنه يتشكل من خلال الممارسات اليومية والعلاقات الاجتماعية. وبناءً على ذلك، تتمثل إشكالية البحث في فهم تأثير الانتماء القبلي في تنظيم واستعمال الفضاء العام داخل سوق زقاق بن رمضان ببسكرة، سواء عبر التموقع المكاني للتجار، أو شبكات التحالف والتعاون، أو آليات الضبط الاجتماعي وحل النزاعات، إضافة إلى تحليل علاقته بمفاهيم

الثقة والتضامن والسلطة الرمزية داخل السوق، بما يكشف عن أنماط تنظيم اجتماعي هجينة تجمع بين التقليدي والحديث.

الإشكالية الرئيسة:

كيف يؤثر الانتماء القبلي في تنظيم واستعمال الفضاء العام داخل سوق زقاق بن رمضان ببسكرة ؟

أسئلة فرعية:

- كيف يتجلى الانتماء القبلي في العلاقات التجارية والاجتماعية داخل السوق؟
- هل يحدد الانتماء القبلي مواقع البيع، التحالفات، أو النزاعات؟
- ما علاقة الانتماء القبلي بمفاهيم الثقة، التضامن، والسلطة الرمزية في السوق؟
- كيف يتفاعل الفضاء الحضري الحديث مع البنى القبلية التقليدية؟

2. أهداف الدراسة:

يسعى البحث إلى تحليل دور الانتماء القبلي في إعادة تشكيل الفضاء العام داخل السوق الشعبي بوصفه فضاءً اجتماعيًا يُنتَج من خلال الممارسات اليومية والعلاقات الاجتماعية، وليس مجرد إطار مادي محايد. وهو ما يتوافق مع رؤية Lefebvre المطروحة سابقا بشأن الطبيعة الاجتماعية لإنتاج الفضاء (Lefebvre, 1991)، أي أن الفضاء يتحدد عبر التفاعلات الاجتماعية. كما يبرز استمرار البنية القبلية في السياق الحضري وقدرتها العالية على التكيف العضوي مع التحولات السياسية ولاقتصادية المحيطة وهو ما يعكس المرونة الوظيفية التي أشرنا إليها سابقا وفق طرح Gellner (Gellner, 1981)، وهو ما يفسر تأثيرها في تنظيم العلاقات الاقتصادية والرمزية داخل السوق. وتدعم دراسات عربية معاصرة هذا الطرح، حيث ترى أن القبيلة ما تزال فاعلًا اجتماعيًا مرنًا يعيد تشكيل المجال الاجتماعي بما يتكيف مع التحولات الحديثة (Boutaleb, 2012).

كما يهدف البحث إلى فهم ديناميات التفاعل الاجتماعي داخل السوق الشعبي، حيث تتقاطع العلاقات الاقتصادية مع الروابط الاجتماعية والرمزية، مما يجعل السوق مجالًا لبناء الثقة والتحالفات وحل النزاعات وفق منطق اجتماعي متجذر. وقد أبرزت دراسات ميدانية جزائرية أن الأسواق الشعبية تمثل مؤسسات اجتماعية حية تعكس أنماط التضامن والضبط الاجتماعي المحلي (AitMouloud, 2011).

ويركز البحث أيضًا على إبراز استمرار الهياكل التقليدية داخل السياق الحضري المعاصر؛ إذ يفسر Pierre Bourdieu ذلك عبر مفهوم الهابيتوس الذي يجسد قدرة البنى التقليدية على إعادة إنتاج ممارساتها وتكييفها مع منطق الشروط الموضوعية للفضاء الجديد (Bourdieu, 1977). وقد أشار

باحثون عرب إلى أن التحضر في المجتمعات المغاربية أفرز أشكالًا تنظيمية هجينة تجمع بين المؤسسات الحديثة والهياكل التقليدية (Mahmoud, 2010).

وأخيرًا، تبرز الدراسة أن الهوية القبلية ليست بقايا ماضٍ جامد، بل مورد اجتماعي يُعاد توظيفه في سياقات جديدة. وبذلك يقدّم البحث إضافة لفهم العلاقة المعقدة بين المدينة والهوية والبنى الاجتماعية التقليدية في شمال إفريقيا.

3. أهمية الدراسة:

تكتسي هذه الدراسة أهمية علمية بالغة لكونها تسهم في إثراء حقل الأنثروبولوجيا الحضرية في الجزائر، وهو مجال ما يزال في حاجة إلى دراسات ميدانية معمّقة تتناول التحولات الاجتماعية داخل الفضاءات الحضرية اليومية، وعلى رأسها الأسواق الشعبية. فمن خلال تحليل التفاعلات الاجتماعية داخل سوق زقاق بن رمضان، تقدّم الدراسة معطيات إثنوغرافية جديدة حول كيفية تشكّل العلاقات الاجتماعية في السياق الحضري المحلي، بما يعزز فهم الخصوصيات الثقافية للمدينة الجزائرية المعاصرة.

كما تتمثل الأهمية العلمية للدراسة في الربط بين الانتماء القبلي والفضاء العام، بوصفهما عنصرين غالبًا ما يُدرسان بشكل منفصل في الأدبيات الاجتماعية. إذ تسعى إلى إبراز كيف يسهم الانتماء القبلي في إعادة تنظيم واستعمال الفضاءات الحضرية، بما يكشف عن استمرار تأثير البنى التقليدية داخل المجال الحضري الحديث. ويُعدّ هذا الربط إضافة نظرية مهمّة لفهم العلاقة الدينامية بين الهوية الاجتماعية والتنظيم المكاني في المجتمعات المغاربية.

أما من الناحية التطبيقية، فتوفّر هذه الدراسة فهمًا أعمق لآليات تنظيم الأسواق الشعبية من الداخل، من خلال الكشف عن دور شبكات التضامن القبلي في توزيع المواقع التجارية، تسهيل المعاملات، وحل النزاعات. ويساعد هذا الفهم على تجاوز المقاربات الإدارية الصرفة في تنظيم الأسواق، والاعتراف بالبُعد الاجتماعي والثقافي الذي يحكم سيرورتها اليومية.

وتسهم نتائج البحث كذلك في دعم السياسات المحلية الخاصة بإدارة الفضاءات العامة، عبر تقديم معطيات ميدانية دقيقة حول أنماط استعمال الفضاء الحضري من قبل الفاعلين الاجتماعيين. إذ يمكن أن تساعد هذه النتائج صانعي القرار في وضع استراتيجيات أكثر انسجامًا مع الواقع الاجتماعي المحلي، تراعي الشبكات غير الرسمية والتنظيمات الاجتماعية التقليدية، بما يعزز فعالية التدخلات الحضرية ويحدّ من النزاعات المرتبطة باستغلال الفضاء العام.

4. الإطار النظري:

1.4. مفهوم الانتماء القبلي

- **القبيلة في الأنثروبولوجيا الكلاسيكية والمعاصرة:**

احتلت القبيلة مكانة مركزية في المناقشات النظرية للأنثروبولوجيا منذ نشأتها، حيث تُنظر إليها بوصفها شكلًا من أشكال التنظيم الاجتماعي القائم على القرابة والتضامن والهوية المشتركة. في الأنثروبولوجيا الكلاسيكية، اعتبر علماء مثل Lewis Morgan أن «القبيلة كوحدة اجتماعية أساسية قادرة على تنظيم العلاقات الاقتصادية والسياسية داخل المجتمعات غير الحديثة» (Morgan, 1877, p. 45)، فيما شدد Émile Durkheim على أن «الطقوس والروابط القرابية تعمل على توطيد التماسك الاجتماعي داخل الجماعات التقليدية» (Durkheim, 1915, p. 78). وأكد Evans-Pritchard أن القبيلة تشكّل «إطارًا تنظيميًا يربط بين العلاقات الاجتماعية والسياسية في المجتمعات غير الحديثة» (Evans-Pritchard, 1940, p. 23). كما أشار الباحث العربي Abdallah Laroui إلى أن «الروابط القبلية كانت ولا تزال تشكل أطرًا مرنة للتنظيم الاجتماعي حتى في سياقات التحول» (Laroui, 1983, p. 102).

في الأنثروبولوجيا المعاصرة، نقدت الدراسات القراءة الأحادية للقبيلة كوحدة غير متغيرة، لتقدّم رؤى أكثر دينامية وتداخلًا مع عناصر الحداثة والتحضر. فقد أوضح Ernest Gellner أن «البنى القبلية تتفاعل مع الضغوط الاجتماعية الحديثة وتتكيف معها بدلًا من أن تختفي كليةً مع التحضر» (Gellner, 1981, p. 72)، فيما يرى Jean-Loup Amselle أن «ما يسمى القبلية يمكن أن يكون نتيجة لعمليات هجينة تنتجها تداخلات بين الثقافات والحضارات المختلفة» (Amselle, 1998, p. 25). كما أكدت الدراسات العربية المعاصرة أن الانتماء القبلي في الجزائر لا يزال يلعب دورًا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، سواء في الريف أو داخل الفضاءات الحضرية مثل الأسواق الشعبية، حيث تظهر شبكات التضامن والهوية القبلية في أنماط التفاعل اليومي (Boutaleb, 2012).

وعليه، يُنظر إلى القبيلة في الأنثروبولوجيا المعاصرة كظاهرة متعددة الأبعاد تتأثر بالعوامل الاقتصادية والسياسية والثقافية، وتتكيف مع التحولات المعاصرة بما في ذلك التحضر والعولمة، متجاوزة الفهم القديم للقبيلة كوحدة جامدة.

- **القرابة، العصبية (ابن خلدون):**

يُعد مفهوم العصبية عند Ibn Khaldun (1332–1406) أحد الأعمدة النظرية الأساسية لفهم البنى الاجتماعية التقليدية في المجتمعات العربية والإسلامية، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالقرابة بوصفها شبكة للتضامن والانتماء. فقد عرف ابن خلدون العصبية بأنها «الرابط القوي الذي يجمع أفراد الجماعة الواحدة على أساس القرابة والنسب أو المصاهرة، ويُمكّنها من تحقيق التماسك الاجتماعي والمواجهة الجماعية للأزمات الخارجية، سواء كانت حروبًا أو ضغوطًا سياسية» (Ibn Khaldun, 2003, p. 112). وتشير الدراسات الحديثة إلى أن العصبية ليست مجرد رابطة عاطفية أو دمويّة، بل تمثل «آلية اجتماعية تتحكم في توزيع الموارد، السلطة، والمكانة ضمن المجتمع، وتساهم في تنظيم الفضاءات الاجتماعية، بما في ذلك الأسواق الشعبية والقرى والمدن» (Anderson, 2010, p. 54).

من زاوية الأنثروبولوجيا المعاصرة، تُعد العصبية نموذجًا لتفسير استمرار الانتماءات التقليدية داخل المدن والتحولات الحديثة، إذ تُعاد إنتاجها في سياقات حضرية هجينة تتقاطع فيها المصالح الاقتصادية مع الروابط الاجتماعية والرمزية. وقد أبرز Jean-Loup Amselle أن «ما يسمى القبلية يمكن أن يكون نتيجة لعمليات هجينة تنتجها تداخلات بين الثقافات والحضارات المختلفة» (Amselle, 1998, p. 25). ويتضح ذلك في الأسواق الشعبية، حيث تتحكم الانتماءات القبلية والقرابية في مواقع البيع، الشبكات التجارية، وعمليات حل النزاعات، مما يبرز استمرار تأثير العصبية التقليدية في تنظيم الفضاء العام في المدن الحديثة.

- **الانتماء والهوية الاجتماعية:**

يشكّل الانتماء والهوية الاجتماعية مفهومَيْن أساسيَّيْن لفهم كيفية تشكّل العلاقات بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع وتنظيم الفضاءات الاجتماعية، بما فيها الأسواق الشعبية. فالانتماء يشير إلى «الشعور بالارتباط بمجموعة معيّنة على أساس القرابة، القبيلة، العرق، الدين، أو الانتماءات الثقافية الأخرى، ويُعتبر محركًا أساسيًا للتضامن والتعاون بين الأفراد» (Tajfel & Turner, 1986, p. 16). أما الهوية الاجتماعية، فهي تمثل البُعد المعرفي والرمزي لهذا الانتماء، أي كيف يعي الفرد ذاته ضمن الجماعة وكيف تُحدّد مواقعه وأدواره في الفضاء الاجتماعي (Hall, 1996, p. 4).

في السياق العربي والمغاربي، تُظهر الدراسات أن الانتماء القبلي لا يزال عنصرًا محوريًا في بناء الهوية الاجتماعية، حيث يحدد «أنماط التفاعل، أساليب التفاوض، توزيع الموارد، ومواضع السلطة الرمزية داخل المجتمع» (Boutaleb, 2012, p. 58). ومن منظور الأنثروبولوجيا الحضرية، يمكن ملاحظة هذه العلاقة في الأسواق الشعبية، حيث تُعاد إنتاج الهوية القبلية يوميًا من خلال الممارسات الاقتصادية والاجتماعية والتفاعلات الرمزية بين التجار والزبائن، مما يعكس استمرار البنى التقليدية داخل الفضاءات الحضرية الحديثة (Amselle, 1998, p. 25; Geertz, 1978, p. 29).

وبناءً على ذلك، يشكّل الانتماء والهوية الاجتماعية إطارًا مفاهيميًا أساسيًا لفهم ديناميات التفاعل داخل الفضاء العام، ولتوضيح كيفية تكيف البنى القبلية التقليدية مع التحولات الاقتصادية والحضرية المعاصرة.

2.4. مفهوم الفضاء العام:

شكل مفهوم الفضاء العام محورًا مركزيًا في العلوم الاجتماعية باعتباره مجالًا تتقاطع فيه الاقتصاد، السياسة، والثقافة مع الحياة اليومية للأفراد والجماعات. فقد قدّم Jürgen Habermas رؤية نقدية للفضاء العام باعتباره «ساحة للتواصل العقلاني والحوار العمومي، حيث يتبادل المواطنون الآراء حول القضايا المشتركة بعيدًا عن تأثير الدولة أو الهيمنة الاقتصادية، مما يمكّن من صياغة الرأي العام وممارسة الرقابة الاجتماعية (Habermas, 1989, p. 49). «أما Henri Lefebvre فقد ركّز على

البُعد الإنتاجي للفضاء، معتبرًا أن «الفضاء ليس مجرد إطار مادي، بل هو نتاج ممارسات اجتماعية تعكس العلاقات الاقتصادية، الرمزية والسياسية، ويُعاد إنتاجه يوميًا من خلال الأنشطة الإنسانية المختلفة.(Lefebvre, 1991, p. 26)

كما تناول Pierre Bourdieu الفضاء الاجتماعي باعتباره «مجالًا متشابكًا من العلاقات التي تتفاوت فيه القوى الرمزية والاقتصادية والثقافية، مؤكدًا أن المواقع داخل الفضاء ليست محايدة، بل تعكس رأس المال المتنوع الذي يمتلكه الأفراد أو الجماعات، بما في ذلك القبائل والشبكات الاجتماعية التقليدية» (Bourdieu, 1984, p. 170). وبدمج هذه التصورات، يمكن النظر إلى الفضاء العام ليس فقط كموقع مادي للتبادل، بل كساحة للتفاعل الاجتماعي، إنتاج الرموز، وإعادة إنتاج الهويات والانتماءات، بما فيها الانتماءات القبلية التي تشكّل روابط قوية داخل الأسواق الشعبية والفضاءات الحضرية التقليدية والمعاصرة على حد سواء.

3.4. القبلية في السياق الحضري:

. تفكك أم إعادة تشكل القبيلة؟

شهدت الأنثروبولوجيا المعاصرة نقاشًا واسعًا حول مصير البنى القبلية في سياق التحضر والتحديث. فقد افترضت النظريات التحديثية الكلاسيكية أن الروابط القبلية تتفكك لصالح العلاقات الفردية والمؤسساتية الحديثة، إلا أن الدراسات الميدانية في شمال إفريقيا أظهرت أن القبيلة «لا تختفي، بل تعيد تشكيل نفسها وفق احتياجات العصر الجديد» (Gellner, 1981, p. 72). وعلى الرغم من تأثير المدن والتحضر، تظل الانتماءات القبلية عاملاً مؤثرًا في تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، وتظهر بوضوح في الأسواق الشعبية، أحياء المدن، وحتى في المؤسسات الاقتصادية الحديثة (Boutaleb, 2012, p. 58). ومن هذا المنظور، يمكن النظر إلى القبيلة «ليس كوحدة جامدة، بل كشبكة دينامية قادرة على التكيف وإعادة إنتاج نفسها ضمن فضاءات حضرية جديدة، مع الحفاظ على معايير التضامن، الثقة، والسلطة الرمزية» (Gellner, 1981, p. 73).

. القبيلة كشبكة تضامن حضرية:

في السياق الحضري، تتحول القبيلة إلى «شبكة تضامن حضرية تؤثر في توزيع الموارد، مواقع النشاط الاقتصادي، والتحالفات الاجتماعية» (Amselle, 1998, p. 25). فقد أظهرت الدراسات الأنثروبولوجية للأسواق الشعبية في شمال إفريقيا أن الانتماءات القبلية تشكّل أساسًا للتعاملات التجارية، حيث «يفضل التجار التعامل مع أبناء قبيلتهم في التموين، الشراكات، وحتى في حل النزاعات» (Geertz, 1978, p. 29). ويشير Amselle أيضًا إلى أن القبيلة في المدن الحديثة «تعمل على إعادة إنتاج نفسها عبر شبكات معقدة من الدعم الاجتماعي والاقتصادي، بحيث تجمع بين البنى التقليدية ومتطلبات الحياة الحضرية الحديثة» (Amselle, 1998, p. 26). وتوضح هذه الديناميات أن القبيلة،

بعيدًا عن كونها ظاهرة ريفية تقليدية، تظل «فاعلًا اجتماعيًا حيويًا داخل الفضاء الحضري، قادرًا على تعزيز التضامن الاقتصادي والهوية الاجتماعية بين أعضائها» (Geertz, 1978, p. 30).

5. المنهجية:

1.5. نوع الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة على منهجية ميدانية نوعية تهدف إلى فهم ديناميات التفاعل الاجتماعي داخل سوق زقاق بن رمضان ببسكرة، مع التركيز على أثر الانتماء القبلي في إعادة تشكيل الفضاء العام. تستند المنهجية النوعية إلى «الملاحظة المباشرة والمقابلات شبه المهيكلة، بما يسمح بالغوص في الممارسات اليومية، أنماط التفاعل، وشبكات التضامن والسلطة الرمزية بين الفاعلين داخل السوق» (Hammersley & Atkinson, 2007, p. 12).كما يتم استخدام أسلوب التوثيق الميداني، بما في ذلك تدوين الملاحظات، تسجيل المحادثات، والتقاط صور رمزية للفضاء والتفاعلات، من أجل تحليل السياقات الاجتماعية والرمزية للأنشطة الاقتصادية.

تتيح هذه المقاربة النوعية فهم كيفية تجلّي الانتماء القبلي في العلاقات التجارية والاجتماعية، وكيفية تحديد مواقع البيع، التحالفات، أو النزاعات داخل السوق. كما تمكّن الباحث من دراسة التفاعل بين الفضاء الحضري الحديث والبنى القبلية التقليدية في الوقت ذاته، بما يتوافق مع الرؤية الأنثروبولوجية للفضاء باعتباره «مجالًا متحركًا للسلطة والمعاني الرمزية» (Lefebvre, 1991, p. 26; Bourdieu, 1977, p. 170). كما يوفر النهج النوعي تحليل البيانات بمرونة، مع احترام خصوصيات الفاعلين المحليين ومراعاة السياق الثقافي والاجتماعي للسوق، مما يجعل النتائج أكثر مصداقية وملاءمة لفهم التعقيدات الاجتماعية التي لا يمكن قياسها بالطرق الكمية التقليدية.

2.5. أدوات البحث:

. الملاحظة بالمشاركة داخل السوق:

تُعدّ الملاحظة بالمشاركة إحدى أهم الأدوات في الدراسات الأنثروبولوجية النوعية، إذ تسمح للباحث بـ«الانغماس في الحياة اليومية للفاعلين ومتابعة التفاعلات الاجتماعية في سياقها الطبيعي» (Spradley, 1980, p. 53). في سياق سوق زقاق بن رمضان، يمكّن هذا الأسلوب الباحث من رصد كيفية تشكيل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية على أساس الانتماءات القبلية، وكيفية «إعادة إنتاج الأنماط التقليدية للتعاون والثقة داخل الفضاء الحضري» (Spradley, 1980, p. 55). كما تتيح الملاحظة بالمشاركة فهم التفاصيل الدقيقة لسلوكيات الفاعلين، مثل اختيار مواقع البيع، ديناميات التحالفات، وآليات حل النزاعات، وهي معلومات غالبًا ما يصعب الحصول عليها عبر الاستبيانات التقليدية.

. مقابلات شبه موجهة:

يتمّ في هذه الدراسة إجراء **مقابلات شبه موجهة** مع ثلاث فئات رئيسية:

- **التجار:**لفهم كيفية تأثير الانتماء القبلي في استراتيجيات البيع، تحالفاتهم الاقتصادية، وإدارتهم للعلاقات مع المنافسين والعملاء.
- **الزبائن:**للكشف عن أبعاد الثقة، تفضيلات الشراء، ودور الانتماء الاجتماعي في اختيار التاجر أو مكان الشراء.
- **كبار السن في الحي:**لتوثيق الذاكرة الاجتماعية والتاريخ المحلي للسوق، ومعرفة التحولات التي طرأت على العلاقات القبلية داخل الفضاء التجاري على مر الزمن.

تتيح المقابلات شبه الموجهة للباحث «مرونة في الحوار، بحيث يمكن التعمّق في القضايا غير المتوقعة، مع الحفاظ على تركيز النقاش على موضوعات الدراسة الأساسية» (Kvale& Brinkmann, 2009, p. 30). كما تعزز هذه الطريقة «الفهم النقدي للديناميات الاجتماعية والثقافية التي تحكم الفضاء العام للسوق، وتسمح بالجمع بين الخبرة اليومية للفرد والتحليل الاجتماعي الموسع» (Kvale& Brinkmann, 2009, p. 32).

. تسجيل الملاحظات الميدانية:

يشكّل تسجيل الملاحظات الميدانية خطوة مكملة لكل من الملاحظة بالمشاركة والمقابلات، إذ يتيح للباحث «الاحتفاظ بسجل دقيق لتفاصيل التفاعلات، الأحداث اليومية، والسلوكيات الرمزية داخل السوق» (Emerson, Fretz, & Shaw, 2011, p. 19). ويشمل هذا التوثيق «تدوين الملاحظات النصية، تسجيل محادثات مختارة مع مراعاة الأخلاقيات البحثية، وربما استخدام الصور والرسوم التوضيحية لتصوير توزيع الفضاء والتفاعلات الاجتماعية» (Emerson, Fretz, & Shaw, 2011, p. 21). ويساعد هذا النهج على بناء قاعدة بيانات غنية يمكن تحليلها لاحقًا للكشف عن أنماط العلاقات القبلية، مواقع النفوذ، وأشكال التعاون والصراع داخل الفضاء الحضري.

3.5. عينة الدراسة:

- إعتمدت الدراسة على عينة قصدية : من مختلف الانتماءات القبلية ، فالكتلة القبلية المهيمنة (الشاوية، لحشاشنة، السوافة، السحاري) والكتلة القبلية المكملة للنسيج الاجتماعي (البوازيد، السوامع، الخضران النوايل، البساكرة (ولاد لبلاد).
- تنويع حسب:

• العمر : الجيل القديم وتتراوح أعمارهم أكثر من الأربعين سنة إلى غاية الستين سنة .
الجيل الوسيط تتراوح أعمارهم في الثلاثينات و الأربعينات .
الجيل الجديد الذين أعمارهم في بداية العشرينات
• مدة النشاط في السوق : الجيل القديم تتجاوز خبرتهم في السوق 30سنة وأكثر.

الجيل الوسيط تتراوح مدة نشاطهم بين 10 سنوات إلى 25 سنة في السوق .

الجيل الجديد تتراوح مدة نشاطهم بين 5سنوات إلى غاية الستة أشهر.

• نوع التجارة : تم اختيار المبحوثين من مختلف التخصصات التجارية التي تعكس تنوع الفضاء المكاني للسوق حيث شملت الذهابة (الصياغة) و قش لعرايس (محلات لوازم العرائس)، محلات الأقمشة، محلات الملابس الرجالية والنسائية محلات العطور، محلات لحشاوش (الأعشاب والعطارة) ، محلات الأحذية والإسكافي وصولا إلى محلات الخضر والفواكه والقهوة والخردوات .

4.5. المجال الزماني والمكاني:

• المكان: سوق "زقاق بن رمضان " ببسكرة وهو فضاء حضري ذو أهمية تاريخية ورمزية واجتماعية ويمثل مركز ثقل تجاري تقليدي بالمدينة .

الزمن: امتدت الدراسة الميدانية إلى ستة أشهر،من جانفي 2025إلى غاية جوان 2025 وهي فترة شملت دورة موسمية كاملة وكافة الأزمنة السوقية أي في أوقات الذروة (عطلة الأسبوع وتحديدا يوم السبت)والأوقات العادية (منتصف الأسبوع) بالإضافة إلى الفترات والمناسبات الدينية والاجتماعية،وذالك بهدف رصد التفاعلات المختلفة بدقة .

6. الدراسة:

1.6. البنية القبلية داخل السوق:

• توزيع التجار حسب الانتماء:

يُظهر توزيع التجّار حسب الانتماء داخل سوق زقاق بن رمضان ببسكرة «شكلًا من أشكال التنظيم الاجتماعي غير الرسمي الذي يقوم على الروابط القرابية، الجهوية، أو شبكات المعارف السابقة، أكثر مما يقوم على قواعد إدارية مكتوبة» (Hammoudi, 1997, p. 45). ففي كثير من الحالات، يميل التجار المنحدرون من نفس المنطقة أو العائلة إلى التمركز في مواقع متقاربة داخل السوق، مما يُنتج «تجمعات صغيرة شبه مستقرة ترتبط بنوع معين من السلع أو بأصول جغرافية مشتركة» (Rachiq, 2003, p. 22). هذا النمط يعكس منطق الثقة والتضامن الاجتماعي، حيث تتشكل علاقات تبادل للمعلومات حول الأسعار ومصادر التزوّد، إضافة إلى أشكال من الدعم المتبادل في مواجهة المخاطر الاقتصادية أو النزاعات اليومية.

ومن المنظور الأنثروبولوجي المقارن، يبرز Clifford Geertz أن التمركز المكاني للتجار غالبًا ما يرتبط «بشبكات الثقة والانتماء، حيث تؤدي العلاقات الاجتماعية دورًا أساسيًا في تنظيم التبادل التجاري أكثر من القوانين الرسمية» (Geertz, 1978, p. 29). كما تشير دراسات Henri Lefebvre إلى أن «الاستخدام الاجتماعي للمكان يعكس بنيات السلطة والانتماء داخل المجتمع، وأن الأسواق تمثّل

نموذجًا واضحًا للتداخل بين الاجتماعي والاقتصادي» (Lefebvre, 1991, p. 26). وبناءً عليه، فإن توزيع التجار في سوق زقاق بن رمضان لا يُفهم فقط بوصفه ترتيبًا عمليًا للفضاء، بل باعتباره «تعبيرًا عن شبكة معقّدة من العلاقات الاجتماعية التي تعيد إنتاج الانتماء داخل المجال الاقتصادي الحضري» (Hammoudi, 1997, p. 47).

- شبكات التضامن والتعاون:

تُشكّل شبكات التضامن والتعاون داخل سوق زقاق بن رمضان ببسكرة أحد المحاور الأساسية التي تنظّم الحياة الاقتصادية والاجتماعية للتجّار، حيث تتجاوز العلاقات حدود المنافسة التجارية لتأخذ طابعًا جماعيًا قائمًا على المساندة المتبادلة وتبادل الموارد والمعلومات. ميدانيًا، يُلاحظ أن التجّار يتعاونون في مراقبة السلع وحماية المحلات في فترات الغياب، كما يتبادلون الأخبار حول تقلّبات الأسعار ومصادر التموين، ويقدّم بعضهم القروض الصغيرة غير الرسمية في حالات الطوارئ دون اللجوء إلى المؤسسات البنكية. كما يظهر التضامن بوضوح خلال المناسبات الدينية والاجتماعية، حيث تُنظّم مساعدات جماعية للتجار المتضرّرين أو المرضى، بما يعزّز روح الانتماء إلى جماعة السوق بوصفها وحدة اجتماعية متماسكة. هذه الممارسات تعكس استمرار منطق "التكافل" التقليدي داخل فضاء حضري حديث، حيث تُعاد صياغة القيم الاجتماعية في إطار النشاط الاقتصادي اليومي.

يشير عبد الله حمودي إلى أن «التضامن في المجتمعات المغاربية لا يقوم فقط على البعد الأخلاقي، بل يُعدّ آلية اجتماعية لضبط العلاقات وتقليل المخاطر الاقتصادية، خاصة في الأنشطة غير المستقرة مثل التجارة التقليدية» (Hammoudi, 1997, p. 50). كما يؤكد حسن رشيق أن «الأسواق الشعبية تشكّل فضاءات لإنتاج شبكات اجتماعية كثيفة تقوم على الثقة والتعاون أكثر من اعتمادها على العقود الرسمية» (Rachiq, 2003, p. 34). وعلى المستوى المقارن، يبيّن Clifford Geertz في تحليله لاقتصاد البازار أن «العلاقات الشخصية وشبكات الثقة تمثّل حجر الأساس في تنظيم المبادلات التجارية، حيث تُعوّض ضعف المعلومات الرسمية عبر التفاعل اليومي» (Geertz, 1978, p. 31). كما تبرز أعمال Pierre Bourdieu حول "رأس المال الاجتماعي" كيف «تتحوّل علاقات التضامن إلى مورد فعلي يُستثمر اقتصاديًا لضمان الاستمرارية والاستقرار المهني» (Bourdieu, 1986, p. 248). وبناءً على ذلك، يمكن فهم شبكات التضامن داخل سوق زقاق بن رمضان بوصفها «بنية اجتماعية غير رسمية تؤدي دورًا محوريًا في الحفاظ على توازن السوق، وتقليل الهشاشة الاقتصادية للتجّار، وتعزيز الروابط الاجتماعية داخل الفضاء الحضري» (Hammoudi, 1997, p. 52).

2.6. الانتماء القبلي وتنظيم الفضاء:

- اختيار المواقع:

يُسهم الانتماء القبلي والجهوي بدور واضح في تنظيم الفضاء داخل سوق زقاق بن رمضان ببسكرة، حيث لا يتم اختيار مواقع البيع بشكل عشوائي أو وفق اعتبارات اقتصادية بحتة، بل يتأثر بشبكات القرابة والانتماءات الاجتماعية المتجذّرة في المجتمع المحلي. ميدانيًا، يُلاحظ تمركز التجار المنحدرين من نفس القبيلة أو المنطقة الأصلية في فضاءات متجاورة داخل السوق، ما يخلق أحياءً تجارية مصغّرة تحمل بصمة اجتماعية معيّنة. هذا التمركز يسهّل عملية التعاون وتبادل المعلومات، ويوفّر نوعًا من الحماية الرمزية والاجتماعية، خاصة في حالات النزاع أو المنافسة. كما يسمح للتاجر الجديد بالاندماج بسرعة من خلال الالتحاق بشبكته القبلية، التي توفّر له الدعم المعنوي والمعرفة غير الرسمية بقواعد السوق، وهو ما يعكس استمرار دور البنى التقليدية في تنظيم الفضاء الحضري المعاصر.

ومن الناحية النظرية، يوضح عبد الله حمودي أن «الانتماء القبلي في المجتمعات المغاربية لا يختفي مع التحضّر، بل يعاد إنتاجه داخل مؤسسات حديثة وفضاءات اقتصادية بوصفه آلية لتنظيم العلاقات الاجتماعية وضبط التفاعل اليومي» (Hammoudi, 1997, p. 54). كما يشير حسن رشيق إلى أن «المجال الحضري يشكّل مسرحًا لإعادة تشكيل الهويات الجماعية، حيث تتداخل الاعتبارات الاجتماعية مع استخدام الفضاء العام» (Rachiq, 2003, p. 36). وعلى المستوى المقارن، تبرز دراسات Clifford Geertz حول الأسواق التقليدية في شمال إفريقيا أن «اختيار المواقع داخل السوق يرتبط بشبكات الانتماء والثقة المتبادلة، لا فقط بقيمة الموقع الاقتصادية» (Geertz, 1978, p. 30). كما يؤكد Henri Lefebvre في نظريته حول إنتاج الفضاء أن «التنظيم المكاني هو نتاج علاقات اجتماعية وتاريخية أكثر منه تخطيطًا تقنيًا محايدًا» (Lefebvre, 1991, p. 26). وبذلك يمكن اعتبار تنظيم الفضاء في سوق زقاق بن رمضان «انعكاسًا حيًا لتفاعل الانتماء القبلي مع متطلبات النشاط الاقتصادي، حيث يُعاد تشكيل المكان وفق منطق اجتماعي يضمن الاستقرار والتماسك داخل السوق» (Hammoudi, 1997, p. 55).

- السيطرة الرمزية على بعض المساحات:

تتجلّى السيطرة الرمزية على بعض المساحات داخل سوق زقاق بن رمضان ببسكرة في الكيفية التي تُنسب بها مواقع معيّنة إلى تجّار أو مجموعات بعينها بوصفها "ملكًا غير رسمي" لهم، رغم كونها فضاءً عامًا من الناحية القانونية. ميدانيًا، يُلاحظ أن بعض التجّار يحتفظون بمواقعهم لسنوات طويلة، ويُنظر إليها من قبل باقي الفاعلين في السوق باعتبارها مواقع "محجوزة" لا يجوز التعدّي عليها، حتى في حالات الغياب المؤقت. هذه السيطرة لا تُفرض بالقوة المباشرة، بل عبر الاعتراف الجماعي، والأقدمية، والسمعة، وشبكات العلاقات الاجتماعية التي تمنح صاحب الموقع نوعًا من الشرعية الرمزية. كما يظهر أن بعض المساحات القريبة من المداخل أو نقاط العبور الرئيسية تُكتسب قيمة

خاصة، ويتم الحفاظ عليها من قبل تجّار نافذين اجتماعيًا، ما يعكس وجود تراتبية غير معلنة داخل السوق. وتؤدي هذه السيطرة دورًا في إعادة إنتاج النفوذ الاجتماعي، حيث يتحوّل الموقع المكاني إلى مورد رمزي واقتصادي في آن واحد.

يفسّر Pierre Bourdieu هذا النوع من الهيمنة باعتباره «شكلًا من الرأسمال الرمزي الذي يُكتسب عبر الاعتراف الاجتماعي والتاريخ المهني داخل الجماعة، لا عبر القوانين الرسمية فقط» (Bourdieu, 1986, p. 250). وفي السياق المغاربي، يشير عبد الله حمودي إلى أن «النفوذ الاجتماعي غالبًا ما يتجسّد في التحكم غير المباشر في الموارد والفضاءات، اعتمادًا على الشرعية الاجتماعية أكثر من السلطة القانونية» (Hammoudi, 1997, p. 57). كما يؤكد حسن رشيق أن «الفضاءات الحضرية الشعبية تخضع لمنطق اجتماعي غير مكتوب، تُوزّع فيه المواقع وفق علاقات القوة والانتماء والأقدمية» (Rachiq, 2003, p. 38). وعلى المستوى النظري الأوسع، يبيّن Henri Lefebvre أن «الفضاء ليس محايدًا، بل يُنتَج اجتماعيًا من خلال ممارسات السيطرة والتمثّل والرمز» (Lefebvre, 1991, p. 28). وبناءً عليه، يمكن فهم «السيطرة الرمزية على بعض المساحات داخل سوق زقاق بن رمضان بوصفها آلية اجتماعية لتنظيم النفوذ وضبط التفاعل، تساهم في الحفاظ على توازن السوق لكنها في الوقت ذاته تعكس علاقات القوة الكامنة بين فاعليه» .(Hammoudi, 1997, p. 58)

3.6. النزاعات وحلها:

- دور القبيلة في الوساطة:

يلعب الانتماء القبلي دورًا محوريًا في آليات الوساطة وحلّ النزاعات داخل سوق زقاق بن رمضان ببسكرة، حيث لا تُحال أغلب الخلافات اليومية سواء المرتبطة بالمواقع، أو المنافسة على الزبائن، أو الديون الصغيرة إلى الجهات الرسمية، بل تُعالج في الغالب عبر قنوات اجتماعية غير رسمية تقودها شخصيات ذات مكانة قبلية أو اجتماعية محترمة. ميدانيًا، يُلاحظ تدخّل كبار السن أو وجهاء ينتمون إلى نفس القبيلة أو الشبكة الجهوية للطرفين المتنازعين، حيث يتم السعي إلى التهدئة وإعادة التوازن بدل التصعيد. وتقوم هذه الوساطة على منطق الصلح، وحفظ السمعة، وتجنّب القطيعة داخل جماعة السوق، ما يعكس استمرار ثقافة التحكيم الاجتماعي التقليدي داخل الفضاء الحضري المعاصر. كما تساهم هذه الآلية في تقليل حدّة الصراعات والحفاظ على استمرارية النشاط التجاري في مناخ يسوده قدر من الاستقرار والثقة المتبادلة.

ومن الناحية النظرية، يبرز عبد الله حمودي أن «القبيلة في المجتمعات المغاربية تؤدي وظائف تنظيمية تتجاوز المجال القروي لتشمل الفضاءات الحضرية، خاصة في ما يتعلّق بتدبير النزاعات وضبط العلاقات الاجتماعية» (Hammoudi, 1997, p. 60). كما يشير حسن رشيق إلى أن «الوساطة التقليدية تظلّ آلية فعّالة داخل الأسواق الشعبية، حيث تُفضَّل الحلول الاجتماعية التي تحافظ على

التماسك الجماعي على اللجوء إلى القضاء الرسمي» (Rachiq, 2003, p. 40). وعلى المستوى المقارن، توضّح أعمال ماكس غلوكمان أن «الصلح والوساطة الاجتماعية يُعدّان عنصرين أساسيين في إعادة إنتاج النظام الاجتماعي ومنع تفككه» (Gluckman, 1955, p. 12). كما يبيّن فريدريك بارث أن «شبكات الانتماء تلعب دورًا حاسمًا في إدارة الصراعات داخل الجماعات الاقتصادية الصغيرة، حيث تُستثمر الروابط الاجتماعية كآلية للضبط والتفاوض» (Barth, 1966, p. 88). وبذلك يمكن اعتبار «دور القبيلة في الوساطة داخل سوق زقاق بن رمضان امتدادًا لبنية اجتماعية تقليدية تكيّفت مع السياق الحضري، وأسهمت في تنظيم العلاقات الاقتصادية والحفاظ على الاستقرار الاجتماعي داخل السوق» (Hammoudi, 1997, p. 61).

• أشكال الضبط الاجتماعي:

تتجلّى أشكال الضبط الاجتماعي داخل سوق زقاق بن رمضان ببسكرة في مجموعة من القواعد غير المكتوبة التي تنظّم سلوك التجّار والزبائن وتحدّد ما يُعدّ مقبولًا أو مرفوضًا داخل الفضاء التجاري. ميدانيًا، يُلاحظ أن احترام المواقع، عدم خطف الزبائن بشكل فجّ، الالتزام بأسعار شبه متعارف عليها، واحترام الأقدمية المهنية تمثّل أعرافًا أساسية تحكم التفاعل اليومي. ويُمارَس هذا الضبط عبر آليات رمزية أكثر من كونه عقابيًا رسميًا، مثل التوبيخ الجماعي، فقدان الثقة، العزلة الاجتماعية، أو التدخل من طرف وجهاء السوق لإعادة النظام. كما تلعب السمعة دورًا محوريًا في ضبط السلوك، حيث يُحرص التاجر على الحفاظ على صورة إيجابية تضمن له استمرار التعامل والدعم داخل الشبكة الاجتماعية للسوق. وتُسهم هذه الآليات في تقليل النزاعات وضمان استمرارية النشاط الاقتصادي في غياب رقابة رسمية صارمة، ما يعكس قدرة الجماعة المحلية على تنظيم ذاتها ذاتيًا.

ومن الناحية النظرية، يشير عبد الله حمودي إلى أن «المجتمعات المغاربية تعتمد بشكل كبير على الأعراف الاجتماعية والرقابة الجماعية لضبط العلاقات اليومية، حيث تُعدّ السمعة والاعتراف الاجتماعي أدوات فعّالة للامتثال للسلوك المقبول» (Hammoudi, 1997, p. 62). كما يؤكد حسن رشيق أن «الأسواق الشعبية تخضع لمنطق اجتماعي قائم على التفاوض المستمر بين الأفراد والجماعة، حيث تُمارس السلطة بشكل غير مباشر عبر العرف والتوافق» (Rachiq, 2003, p. 42). وعلى المستوى المقارن، يوضّح Émile Durkheim أن «الضبط الاجتماعي يقوم أساسًا على القيم والمعايير المشتركة التي تفرض نفسها عبر الضغط الجماعي وليس فقط عبر القانون» (Durkheim, 1893, p. 78). كما تبيّن دراسات Erving Goffman حول التفاعل اليومي أن «الأفراد يضبطون سلوكهم خوفًا من فقدان المكانة الاجتماعية والاعتراف داخل الجماعة» (Goffman, 1959, p. 45). وبذلك يمكن فهم «أشكال الضبط

الاجتماعي داخل سوق زقاق بن رمضان بوصفها نظامًا غير رسمي يحافظ على التوازن الاجتماعي ويضمن سير النشاط الاقتصادي في إطار من الاستقرار النسبي» (Hammoudi, 1997, p. 63).

4.6. التحول الحضري والقبيلة:

• تراجع أم استمرارية؟

يطرح التحوّل الحضري في مدينة بسكرة، كما يتجلّى داخل سوق زقاق بن رمضان، سؤالًا جوهريًا حول مصير البنى القبلية: هل أدّى التمدّن إلى تراجع دور القبيلة أم إلى إعادة تشكّلها في صيغ جديدة؟ ميدانيًا، يُلاحظ أن مظاهر الحداثة الحضرية كالتنظيم الإداري، توسّع المدينة، وتنوّع الفاعلين الاجتماعيين لم تُفضِ إلى اختفاء الانتماءات القبلية، بل ساهمت في إعادة توظيفها داخل الفضاء الاقتصادي. فالقبيلة لم تعد تؤدي أدوارها التقليدية الصرفة المرتبطة بالأرض أو القرابة المباشرة، بل تحوّلت إلى شبكة اجتماعية تُستثمر في اختيار المواقع، بناء التحالفات التجارية، حلّ النزاعات، وتوفير الدعم المتبادل. وفي الوقت نفسه، يظهر نوع من التراجع النسبي في سلطة القبيلة الصارمة، خاصة لدى الأجيال الشابة التي تميل إلى علاقات أكثر فردية وبراغماتية. غير أن هذا التراجع لا يعني القطيعة، بل يعكس تحوّل القبيلة من بنية مغلقة إلى مورد اجتماعي مرن يتكيّف مع شروط المدينة الحديثة.

ومن الناحية النظرية، يوضح عبد الله حمودي أن «التحضّر في المجتمعات المغاربية لا يقضي على البنى التقليدية، بل يعيد إنتاجها داخل أشكال اجتماعية جديدة تتلاءم مع السياق الحضري» (Hammoudi, 1997, p. 64). كما يشير حسن رشيق إلى أن «المدينة المغاربية ليست فضاءً للقطيعة مع الماضي، بل مجالًا لإعادة تشكيل الهويات الجماعية في تفاعل مستمر مع التحولات الاقتصادية والاجتماعية» (Rachiq, 2003, p. 44). وعلى المستوى المقارن، يؤكد فريدريك بارث أن «الجماعات التقليدية لا تزول بفعل الحداثة، بل تعيد تنظيم حدودها ووظائفها وفق المصالح الجديدة» (Barth, 1969, p. 102). كما تبرز أعمال مانويل كاستلز أن «الشبكات الاجتماعية القديمة غالبًا ما تستمر داخل المدن لكن بصيغ مرنة تتناسب مع الاقتصاد الحضري» (Castells, 1996, p. 88). وبناءً عليه، يمكن القول إن «التحوّل الحضري في بسكرة لم يؤدّ إلى اندثار القبيلة داخل السوق، بل إلى استمراريتها المتحوّلة، حيث تظلّ فاعلًا اجتماعيًا مهمًا وإن فقدت بعض وظائفها التقليدية لصالح أدوار جديدة تتلاءم مع واقع المدينة» (Hammoudi, 1997, p. 65).

• أشكال جديدة للانتماء:

تشهد الأسواق الحضرية مثل سوق زقاق بن رمضان في بسكرة بروز أشكال جديدة للانتماء تتجاوز الانتماء القبلي التقليدي، متأثرة بالتحوّل الحضري والتنوع الاجتماعي والاقتصادي. ميدانيًا، يُلاحظ أن بعض التجّار الشباب والوافدين الجدد يشكّلون شبكات مرتبطة بالأنشطة الاقتصادية

المشتركة، أو المصلحة المهنية، أو حتى الصداقة والعلاقات الشخصية، دون اعتماد مباشر على الروابط القبلية أو العائلية. كما تظهر مجموعات صغيرة تتأسس حول نوع السلع أو موقع معين داخل السوق، حيث يتم التعارف وتبادل الدعم والمعلومات بما يعزز شعور الانتماء المشترك ويخلق هويات وظيفية جديدة. ومن الأمثلة الأخرى، التعاون عبر جمعيات محلية أو مجموعات شبابية داخل السوق، التي تُنسّق جهودها للترويج للسلع أو تنظيم الأنشطة التجارية، ما يُظهر أن الانتماء صار أكثر ديناميكية ومرونة، ويعتمد على الفاعلية الاجتماعية والاقتصادية بدل القاعدة القبلية التقليدية.

ويشير عبد الله حمودي إلى أن «الانتماءات الجديدة في المدن المغاربية تمثل تحوّلًا وظيفيًا للروابط التقليدية، حيث تبقى القيم الاجتماعية الأساسية حاضرة لكنها تُستثمر في سياقات اقتصادية واجتماعية حديثة» (Hammoudi, 1997, p. 66). كما يؤكد حسن رشيق أن «المدينة تسمح بإعادة تشكيل الهويات والانتماءات عبر العلاقات التفاعلية اليومية بين الفاعلين، ما يؤدي إلى ظهور هويات شبكية تعتمد على المصالح المشتركة أكثر من النسب والقبيلة» (Rachiq, 2003, p. 46). وعلى المستوى المقارن، يبرز فريدريك بارث أن «الانتماءات العرقية أو التقليدية يمكن أن تتحول إلى شبكات مرنة قائمة على المصلحة المتبادلة في ظل التحوّل الاقتصادي والحضري» (Barth, 1969, p. 105). كما تبيّن أعمال مانويل كاستلز أن «شبكات الانتماء الجديدة في الفضاء الحضري تقوم على المصالح العملية والتواصل الاجتماعي والتعاون المهني، ما يتيح اندماج الفاعلين الجدد في الأسواق دون الحاجة إلى الانتماء التقليدي» (Castells, 1996, p. 92). وبذلك يمكن فهم «أشكال الانتماء الجديدة في سوق زقاق بن رمضان على أنها تحوّل وظيفي واجتماعي للروابط التقليدية، يضمن استمرارية التعاون والاندماج داخل الفضاء الاقتصادي الحضري ويعكس ديناميكية المجتمع المحلي» (Hammoudi, 1997, p. 67).

7. مناقشة النتائج:

تُظهر النتائج الميدانية في سوق زقاق بن رمضان أن «التنظيم الاجتماعي والاقتصادي للسوق لا يمكن فهمه بمعزل عن الانتماءات التقليدية والحديثة، حيث تتداخل القبيلة، شبكات التضامن، أشكال الضبط الاجتماعي، والانتماءات الجديدة في إعادة إنتاج النظام الاجتماعي داخل الفضاء التجاري». من الناحية النظرية، تتماشى هذه النتائج مع ما أشار إليه فريدريك بارث بأن «الانتماءات التقليدية تتمتع بمرونة وظيفية تسمح لها بالتكيف مع التحولات الحديثة» (Barth, 1969, p. 110)، ومع مانويل كاستلز في مفهوم «الشبكات الحضرية القائمة على المصالح المشتركة» (Castells, 1996, p. 95)، وكذلك مع أعمال بيير بورديو التي تبين أن «الرأسمال الرمزي والاعتراف الاجتماعي يشكّلان وسيلة للتحكم في الموارد والفضاء» (Bourdieu, 1986, p. 248). فشبكات التضامن والوساطة القبلية داخل السوق تمثل «آليات غير رسمية للضبط الاجتماعي، تعوّض جزئيًا غياب الرقابة الرسمية وتضمن استمرارية النشاط الاقتصادي وتقليل النزاعات»، وهو ما يؤكد استمرارية الوظائف

الاجتماعية للقبيلة في البيئة الحضرية، رغم بعض مظاهر التراجع بين الأجيال الشابة (Hammoudi, 1997, p. 68).

وعند مقارنة هذه النتائج بدراسات مشابهة في المغرب الكبير، نجد توافقًا كبيرًا مع ما لاحظه حمودي بأن «القيم القبلية والجهوية تستمر في تنظيم التجارة داخل الأسواق الحضرية والريفية» (Hammoudi, 1997, p. 70)، ومع رشيق الذي يشير إلى أن «الأسواق الشعبية تُعيد إنتاج الهياكل التقليدية داخل الفضاء الحضري بطريقة مرنة ومتكيّفة مع متطلبات الحداثة» (Rachiq, 2003, p. 48). كذلك تتقاطع نتائجنا مع دراسات ميدانية في تونس والمغرب التي تؤكد أن «الفضاءات التجارية الشعبية تمثل مزيجًا بين الممارسات التقليدية والضوابط الحديثة، ويبرز فيها دور الأقدمية، السمعة، والوساطة كعناصر أساسية للحفاظ على التوازن الاجتماعي» (Geertz, 1978, p. 120).

أما خصوصية الحالة البصرية في بسكرة فتتمثل في كون المدينة تجمع بين التحضر الجزئي والانفتاح على التجارة التقليدية، مع انتشار التجار القادمين من مناطق ريفية متعددة، ما يؤدي إلى تنوع شبكات الانتماء (قبلية، جهوية، شبكية، مهنية). كما أن موقع السوق في قلب المدينة القديمة، وقربه من المداخل الرئيسية والطرق التقليدية، يمنحه قيمة استراتيجية عالية، ما يجعل السيطرة الرمزية على المواقع وممارسة الضبط الاجتماعي أكثر وضوحًا مقارنة بأسواق حضرية أخرى في الجزائر. هذا المزج بين الانتماءات التقليدية والتحولات الحضرية، وبين الديناميات الاقتصادية والاجتماعية، يجعل سوق زقاق بن رمضان نموذجًا فريدًا لدراسة تفاعل القبيلة والتحضر والشبكات الاجتماعية في الأسواق الشعبية المغاربية.

- أهم النتائج

1. استمرار الانتماء القبلي في الفضاء الحضري :رغم التحول الحضري وتنوع الفاعلين، لا تزال الشبكات القبلية والجهوية تؤثر في تنظيم المواقع داخل السوق، اختيار الشركاء التجاريين، وحل النزاعات.

2. شبكات التضامن والتعاون :تكشف الملاحظة الميدانية أن التجار يمارسون أشكالًا متعددة من التعاون والمساندة، سواء من خلال تبادل المعلومات، القروض الصغيرة، حماية المواقع، أو الدعم في المناسبات الاجتماعية، ما يعزز التماسك الاجتماعي داخل السوق.

3. أشكال الضبط الاجتماعي والسيطرة الرمزية:يظهر أن الضبط الاجتماعي قائم على الأعراف، السمعة، والاعتراف الجماعي أكثر من الرقابة الرسمية، وأن السيطرة على المواقع تُكتسب عبر الشرعية الرمزية، الأقدمية، والعلاقات الاجتماعية.

4. ظهور أشكال جديدة للانتماء :الأجيال الجديدة والوافدون يكوّنون شبكات قائمة على المصالح المشتركة، الوظائف الاقتصادية، والمواقع داخل السوق، ما يعكس مرونة الانتماءات وتحوّلها وفق السياق الحضري.

5. خصوصية الحالة البصرية :السوق يمثل مزيجًا فريدًا بين التحضر الجزئي والتقاليد القبلية، مع موقع استراتيجي يزيد من أهمية السيطرة الرمزية على بعض المواقع ووضوح الشبكات الاجتماعية.

دلالاتها الأنثروبولوجية:

1. تؤكد النتائج أن القبيلة ليست بنية جامدة، بل مرنة ومتكيّفة مع التحولات الحضرية، وتستمر بوصفها أداة لتنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية(;Barth, 1969)(حمودي، 1997)

2. الشبكات الرمزية والضبط الاجتماعي داخل السوق تعكس تداخل البعد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في الفضاءات الحضرية الشعبية، وهو ما يدعم الرؤية الأنثروبولوجية التي ترى الأسواق كساحات لإعادة إنتاج القيم والهوية المحلية(;Geertz, 1978رشيق، 2003).

3. ظهور الانتماءات الجديدة يعكس تحوّل وظائف الروابط التقليدية إلى أشكال عملية قائمة على التعاون والمصلحة المشتركة، وهو مؤشر على ديناميكية المجتمع المحلي في مواجهة التحضر والتنوع الاجتماعي.(Castells, 1996)

4. سياسات السيطرة الرمزية والضبط غير الرسمي تبرز دور الأعراف والاعتراف الاجتماعي في تنظيم الحياة الاقتصادية، وهو ما يعكس استمرار البنى الثقافية في إنتاج النظام الاجتماعي حتى في سياق حضري متغير.

آفاق البحث المستقبلية

5. تحليل مقارنة مع أسواق أخرى في الجزائر أو المغرب الكبير لفهم مدى تشابه أو اختلاف ديناميات الانتماء والضبط الاجتماعي.

6. دراسة تأثير التحولات الاقتصادية الحديثة، مثل التجارة الإلكترونية والأسواق الحديثة، على الشبكات التقليدية والانتماءات الاجتماعية في الأسواق الشعبية.

7. مقاربة الأجيال الجديدة :فهم كيف يغيّر الشباب والوافدون من أنماط الانتماء، التعاون، واكتساب المواقع داخل السوق.

8. دمج البعد الإداري والقانوني :دراسة العلاقة بين الضبط الرسمي (البلدية، الشرطة) والضبط الاجتماعي غير الرسمي داخل الأسواق الشعبية.

9. تطوير مؤشرات قياس رأس المال الاجتماعي والرمزي في الفضاءات الحضرية لتقييم قوة الشبكات التقليدية والحديثة في تنظيم الأسواق.

خاتمة:

تُبرز دراسة سوق زقاق بن رمضان في بسكرة أن الأسواق الشعبية ليست مجرد فضاءات اقتصادية، بل حقول اجتماعية وثقافية تتداخل فيها الانتماءات التقليدية والحديثة، الشبكات الاجتماعية،وأشكالالضبط الرمزي.فقد أظهرت الملاحظة الميدانية استمرار دور القبيلة في تنظيم العلاقات وحل النزاعات، رغم التحولات الحضارية، مع بروز شبكات تعاون وتضامن تعمل على ضمان استمرارية النشاط الاقتصادي والحفاظ على التماسك الاجتماعي. كما كشفت الدراسة عنظهور أشكال جديدة للانتماء قائمة على المصالح المشتركة والموقع داخل السوق، ما يعكس قدرة المجتمع المحلي على التكيّف مع التحضر والتنوع الاجتماعي.

من الناحية الأنثروبولوجية، تؤكد النتائج أن الفضاء الحضري يعيد إنتاج القيم والهويات التقليديةبطريقة مرنة، حيث تتحول الروابط القبلية والجهوية إلى موارد اجتماعية واقتصادية تُستثمر في التنظيم الذاتي للسوق. كما تؤكد السيطرة الرمزية على المواقع وأشكال الضبط الاجتماعي غير الرسمي أنالاعترافالجماعي والأعراف المحلية لا تزال أدوات مركزية للحفاظ على النظام الاجتماعي، بما يتوافق مع ما أشار إليه كل من بورديو (1986) وبارث (1969) وغيبرتز (1978).

أما خصوصية السوق البصرية في بسكرة فتتجلّى **في** المزيج بين التحضر الجزئي والتقاليد القبلية، وتنوّع الفاعلين الاجتماعيين، وأهمية الموقع الاستراتيجي، مما يجعل السوق نموذجًا فريدًا لدراسة تفاعل القبيلة والتحضر والشبكات الاجتماعية في الأسواق الشعبية المغاربية.

تفتح هذه الدراسة آفاقًا للبحث المستقبلي، من بينها تحليل تأثير التحولات الاقتصادية الحديثة على الانتماءات والشبكات الاجتماعية، دراسة دور الأجيال الجديدة في إعادة تشكيل السوق، ومقارنة هذه الديناميات مع أسواق أخرى في الجزائر والمغرب الكبير .في النهاية، تؤكد هذه الدراسة أن الأسواق الشعبية، مثل سوق زقاق بن رمضان، تمثل مختبرًا حيًا لفهم تفاعل البُنى التقليدية والحديثة، والانتماءات الرمزية، والشبكات الاجتماعية، في السياق الحضري المعاصر.

قائمة المصادر والمراجع:

بوطالب، م. ن . (2012). الظواهر القبلية والجهوية في المجتمع العربي المعاصر .المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

ابن خلدون (2003). *المقدمة* (د. حسين مؤنس، تحقيق). دار المعرفة، بيروت.

أيت مولود، ن. (2011). السوق وطقوس العبور في منطقة القبائل .*مجلة إنسانيات*.

حمودي، عبد الله. (1997). الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

رشيق، حسن. (2003). المدينة والسلطة والمعنى. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.

العروي، أ (1983). *بنية المجتمع المغربي*. دار توبقال.

محمود، م. ف (2010). *الضبط الاجتماعي في المجتمعات القبلية: دراسة سوسيوانثروبولوجية*. الدار العالمية للنشر والتوزيع.

Amselle, J.-L. (1998). *Mestizo logics: Anthropology of identity in Africa and elsewhere*. Stanford University Press.

Anderson, J. (2010). *Tribes, networks, and the urban space in North Africa*. Routledge.

Bourdieu, P. (1977). *Outline of a theory of practice*. Cambridge University Press.

Bourdieu, Pierre. *The Forms of Capital*. In: Richardson, J. (ed.), Handbook of Theory and Research for the Sociology of Education, 1986.

Durkheim, É. (1915). *The elementary forms of the religious life*. Free Press.

Durkheim, Émile. *The Division of Labor in Society*. 1893.

Evans-Pritchard, E. E. (1940). *The Nuer: A description of the modes of livelihood and political institutions of a Nilotic people*. Oxford University Press.

Geertz, C. (1978). *The bazaar economy: Information and search in peasant marketing*. American Economic Review, 68(2), 28–32.

Geertz, Clifford. *The Bazaar Economy: Information and Search in Peasant Marketing*. American Economic Review, 1978.

Gellner, E. (1981). *Muslim society*. Cambridge University Press.

Goffman, Erving. *The Presentation of Self in Everyday Life*. 1959.

Habermas, J. (1989). *The structural transformation of the public sphere: An inquiry into a category of bourgeois society* (T. Burger, Trans.). MIT Press.

Hall, S. (1996). *Questions of cultural identity*. SAGE Publications.

Hammersley, M., & Atkinson, P. (2007). *Ethnography: Principles in practice* (3rd ed.). Routledge.

Lefebvre, H. (1991). *The production of space* (D. Nicholson-Smith, Trans.). Blackwell.

Mahdi, M. (2006). *Pastoralists and the city: Urbanization and social change in North Africa*. Routledge.

Morgan, L. H. (1877). *Ancient society*. Henry Holt and Company.

Polanyi, K. (1957). *The great transformation: The political and economic origins of our time*. Beacon Press.

Tajfel, H., & Turner, J. C. (1986). The social identity theory of intergroup behavior. In S. Worchel& W. G. Austin (Eds.), *Psychology of intergroup relationns* (pp. 7–24). Nelson-Hall